

ندرس علاقاتها وتفتحص الصدى الذي يخلفه كل خطاب في الخطابين الآخرين، فإننا نتبين معالم القصة الأصلية التي أشرت إليها آنفاً والتي سأحاول رسم خطوطها بصفة جزئية وبشيء غير قليل من التعثر والتردد.

يورد الجرجاني، في صفحة واحدة من أسرار البلاغة، أربعة أبيات لابن المعتز، مأخوذة من قصائد أو قطع مختلفة، أبيات تتحدث عن صراع بين الصبح والليل :

- 1 - سَقَانِي وَقَدْ سُلَّ سَيْفُ الصَّبَا ح وَاللَّيْلُ مِنْ خَوْفِهِ قَدْ هَرَبَ
- 2 - حَتَّى بَدَا الصَّبَاحُ مِنْ نَقَابِ كَمَا بَدَا الْمُنْصَلُ مِنْ قِرَابِ
- 3 - أَمَا الظَّلَامُ فَحِينَ رَقَ قَمِيحُهُ وَأَتَى تَيَاضُ الصُّبْحِ كَالسَّيْفِ الصِّدِيِّ
- 4 - سَبَقْنَا إِلَيْهَا الصُّبْحَ وَهُوَ مُقَنَّعٌ كَمِينٌ وَقَلْبُ اللَّيْلِ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ

ثم يورد الجرجاني، في نفس الصفحة، بيتاً لأبي عثمان الخالدي :

وَالصُّبْحُ قَدْ جَرَّدَتْ صَوَارِمُهُ وَاللَّيْلُ قَدْ هَمَّ مِنْهُ بِالْهَرَبِ⁽¹⁾

موضوع الأبيات الخمسة النور والظلام، وبالإمكان تسجيل عدة صور تدخل في إطار ثنائية الظاهر والباطن. فالسيف أو المنصل يسئل من القراب، أي الغمد، والظلام ملفوف بقميص، والصبح مقنّع، والصبح محجوب بنقاب. ثم هناك «السيف الصدي»، أي المغلف بالصدأ. كل هذه العبارات تدل على الاختفاء والاستتار، بينما عبارات أخرى تدل على العكس، على بزوغ النور من الغشاء، على الظهور والتجلي. فالسيف قد «سئل» والصبح قد بدأ» والصوارم قد «جرّدت».

هل نكتفي بهذا الوصف للأبيات ؟ هل نكتفي بملاحظة الصورة نفسها في الأبيات الخمسة، مع تعديل طفيف في كل بيت ؟ هل نقول إن الأمر لا يتعدى التشبيه والتصوير الشعري وصناعة الكلام ؟